الاثينية الحسناء

ملخصة من رواية للكاتبة ا · تيركوفا

كان اسقف القسطنطينية يتمشى ذات يوم قبيل الغروب عَلَى سطح دير خارج المدينة · وهو يردد في سره همساً كلمات ظللت اشباح العنف منها وجهه المثقل بلحيته الكثيفة · وهي

— الامرأة الفاضلة تاج لبعلها · اما المخزية فكنخر في عظامه تهلكه···

تلك كلمات حكمة نطق بها ملك يهوذا الحكيم بعد ان جرّب بنفسه حلاوة محاسن النساء المسمومة

انتقى الاسقف هذه الآية من امثال سليمان لتكون موضوع عظته الاحدية · وأخذ يرددها في سره مستجمعاً افكاره · وقد انقدت نفسه بتيار

الكلمات في فكرته وقد اصطفت صفوفاً مرتبة طوع الاشارة كأنها جنود قد تهيأت لمهاجمة شرور الناس وضلالاتهم واهوائهم وعيوبهم السوداء . فتسي الاسقف العالم كله . وهو محاط بجيوشها الجرارة . ولم يكترث بروءية البحر او بخضرة اشجار الزيتون او بحمرة الشفق المسائي الملتهب

وتجسمت امام عينيه تجسم روءيا ثابتة واضحة درجات الملهى الواسع وقد اكتظت بالنساء فلم تعد العين ترى فيها الا ثياباً زاهية الالوان ووجوهاً اكستها الحمرة الاصطناعية وهيجتها مشاهد الميدان القاسية في الاسفل وانفاس الجمع المشتعلة وتعطش صاحباتها الى ان تشعر كل منهن بقوة جاذبيها وتأثيرها في فتن الناس

كم مرة سجد الاسقف على ارض مصلاه تحت الشباك المطل على مياه بحر مرمرا وسبح الرب والدموع تترقرق في عينيه شاكراً خالقه على وقايته اياه من غواية الجسد . مفتخراً بأن لحظ الامرأة الخاطئة المفتش عن غنيمة لا يثير فيه الا اشمئزازاً ونفوراً

وكم مرة رأى ذل اخوته الرهبان وانسحاقهم وخشوعهم وآلامهم بعد ان جرحهم حد الاهواء الممنوعة والشهوة الغرامية فكان يتألم معهم لجالهم ويفرح في الوقت ذاته لتحرره من هذه الشرور ويحسب ذلك نعمة من الله أنزلت عليه هو الخاطىء .

وكم وكم أبصر بعينه وادرك بقلبه ان الملذات العالمية . واهمها التولع بالنساء واتباع اهواء الجسد . قد اخذت تنخر البلاط والجيش وبيوت الاغنياء

حتى عوام البلد وتنسج اشراكها حول مدينة قسطنطين المقدسة

أجل · ابصر الاسقف كل هذا وتنبه له في نفسه · وكان يستعد لمحاربته · ولذا ستكون عظته الاحدية رادعاً لابنائه عن هذا الشر · ألا ان جاذب الجمال الاثيم في الامرأة لينوي الرجل ويوقعه في حبائل الشيطان· ومتى استولى الشر عَلَى الجسد يذل النفس ويهلكها · فلاجل خلاص هذه النفس التي احبها الله سيقول الاسقف للشعب من منبره

— ان جيشاً لجباً من الشياطين يطير حولنا في الهواء مفتشاً عن طريق تقوده الى النفس البشرية · ولا يجد ابليس منفذاً الى القلب الضعيف الا بواسطة الامرأة ···

وبينما الأفكار تشتعل في مخيلة الاسقف وقد تنبهت فصاحته واتقدت غيرته لدى افتكاره بالشياطين وشرورها ·اذا بامرأة طويلة القامة ·ملتفة برداء قاتم قد انتصبت امامه · وكان مجيئها بغتة · كأن نسيم البحر الماكر أتى بها من ديار مجهولة · وكان الرداء الخارجي يغطي رأسها وعنقها ساتراً جمال يديها وكتفيها · ولكن الجمال والصبا كادا أن يقطرا منها رغم هذا التستر ·

فاندهش الاسقف وتحير لقدومها وتساءل في نفسه ·

— كيف تمكنت هذه الامرأة من القدوم الى جزيرة منفردة لايقطنها الا الرهبان ؟ فألما تعوداً حضور عابدة ·

فازاحت الامرأة الرداء عن رأسها بحركة سريعة وتقدمت الى الاسقف وقد امسكت بطرف ثوبها الطويل . فلاحت للعين غدائر شعرها المعقوصة عقدة واحدة . ثقيلة ساقطة عَلَى جيدها وظهرت عيناها النجلاوان الحزينتان وثغرها الوردي الصغير المتناهي لطفاً . ولم يكن عَلَى وجهها اقل دليل عَلَى استعمال مساحيق الزينة من حمرة وبياض بل كان كل جمالها الفتان نقياً . ناصعاً لم تمسه يد التصنع . فخيل للاسقف انه رأى هذا الوجه سابقاً . ولكن لم يعلم أين . وكانت ثيابها الثمينة الانيقة . وحركاتها الرزينة . اللطيفة تدل عَلَى انها من الطبقة العليا في القوم

فعرف الاسقف انها فتاة وثنية قادمة من اثينا . وكانت هيئتها تدل عَلَى الانفة والاستقلال . وطرفها يتلهب اقداماً وعزماً . ولكن شيئاً خفياً ضئيلاً يدل عَلَى الانزعاج والاهتمام لمع في عينيها اذ قالت .

— لقد جئت اليك ...

فقال الاسقف مستفهماً . متعجباً

— الي ؟ ...

وانحنى نحوها قليلاً كما كان ينحني حسب عادته نحو من يكون بحاجة اليه .

فأخرجت الامرأة يدها الناصعة من طيات ردائها الازرق ووضعتها بثقة وائتمان عَلَى كم ثوب الراهب الغليظ الاسود وقالت

— اني افتش عن عريسي . اسمه زينون . وهو مثلي من اثينا . قد

عقدت خطبتنا منذ طفوليتنا ·ولكن اباه ارسله من عهد الى بزنطية ·فلم أره منذ سفره · عَلَى ان بعض التجار الذين أموا مدينتكم اخبروني انه في هذا المكان وانك تعلمه الحكمة · فبربك ايها الاب ·ارجعه الي ! فانتصب الاسقف وتراجع · فسقطت يد الفتاة عنه ضعيفة متروكة واختفت بين طيات ثوبها · وقال الاسقف ·

— لماذا تكذبين يا امرأة ؟ ان ذاك الذي تسمينه زينون لم يبق له من عروس ارضية · فانه قد عقد لنفسه عَلَى كنيسة المسيح

فلمعت عينا الفتاة كأن قادحاً أورى فيهما زنداً وقالت همساً · وهي تكظم صوتها لئلا تصيح كوحش باغته الصياد

— لماذا تهينني ايها الاب ؟ ألا فاعلم ان الفيلسوف اليوناني الذي درسني وزينون الحكمة قد علمنا منذ الصبا ان نكره الكذب · فنشأنا لا نقول سوى الصدق · فسله يا سيدي · ألم تعقد خطبته عَلَى الاثينية انيسيا ابنة سكستونيوس ؟ او انكم في اديرتكم تعلمون المواربة والرياء فلا يجسر خطيبي ان يقول الصدق ؟

قالت هذا وضحكت ضحكة حنق بسكينة ·ولكن الدموع كادت ان ترن من خلال ضحكها

وكان الاسقف يحب تلميذه زينون حباً قوياً يمنعه من ان يرق للفتاة فابتهج في نفسه لان تلميذه لم يكن في هذا الدير بل في دير آخر عَلَى الجانب

عبثاً تبادين بحبك الحقيقة ايتها الفتاة · فخدام المسيح لن يخشوا الحق · ان عدم ذكر زينون اياك بكلمة واحدة امامي في اثناء عامين قاسيتي فيهما شظف الحياة النسكية لكافٍ ان يبرهن لك انه اضحى بعيداً عن الاهواء العالمية الاثيمة ·

ولكنه لم يكد ان ينهي كلامه حتى شعر ان كلماته كانت كلها مكراً وغشاً ·

واتضح له بغتة اين رأى سابقاً هذا الوجه الفتان · والذقن الضيق · والفم الجميل اللطيف المتلألىء فوقه حمرة · وهاتين العينين السوداوين النجلاوين العميقتين المكللتين بحاجبين ارتفع طرفاهما الى فوق · ان ملامح هذه الغادة الاثينية ذات الضفائر الذهبية قد صورها الراهب الشاب عَلَى دفات الكتب المقدسة · هنالك رآها الاسقف · الآن تذكر ذلك وادرك عظم جهاد تلميذه ومقدار ما تحمله صامتاً · وخيل له ان طيوب الغواية والملذات قد تصاعدت وفاحت بحماس والتهاب واتصلت بانفه آتية من مكان مجهول · وتصور انه يسمع وراء ظهره حفيف اجنحة سوداء يرن ضحكها خلفه · فقطب حاجبيه فوق عينيه الفاحصتين الصالحتين

غير انه لم يغضب عَلَى نفسه بل عليها — عَلَى تلك الفتاة النحيفة التي تجاسرت ان تخترق وحدة الدير وتقواه

اما الفتاة فشعر قلبها المتيقظ المترصد بتردد في وجه الراهب وعينيه وصوته فازدادت شجاعتها وقالت ·

— من خولك ايها الراهب ان تدعو اهواءنا وعواطفنا اثيمة . هلاً قلت لي كيف يستطيع العقل الضعيف الحقير ان يحاول قلب مشيئة من خلقنا ؟ ان الكون باسره لمفعم بالميل الى الحب . ألا ترى ان الطيور والوحوش في مجاهل الاحراج تمرح ازواجاً ويتطلب واحدها الاخر . والزهرة تنحني وتقبل اوراق الزهرة المجاورة . حتى الدودة الحقيرة العمياء تخرج من باطن الارض في الصباح الباكر الى الاعشاب المتندية لتبحث عن رفيقها . والسيارات في السماء تسير في افلاك زرقاء لا قرار لها ولا يربطها ويدعمها الا قوة العاطفة المتبادلة . وانتم بالرغم من ذلك كله تحاولون ان تحرموا الانسان ما يساويه بالالهة وتريدون ان تعكروا نبع افراحه وحياته . فمن خولكم هذا الحق ايها الراهب ؟

فعارضها الاسقف محاولاً ان يظهر استياءه بحق من هذه الاقوال الكفرية وقال .

— ان الخضوع والاتضاع لله فقط يجعلان الانسان آلهياً

فهتفت الاثينية وقد لمعت عيناها كحد حلية الماسية وقالت بزلاقة وحنان

— ولكن . أليس في المحبة خضوع لله ؟ انك قد نسيت ايها الراهب ما هو الشباب . ان دمك لا يثور ملتهباً في قلبك، بل يسري متسلسلاً بهدوء كأنه جدول جار وصل

بالتأمل والصلاة · اما انا وزينون فلم نزل شابين والاله پان (١) العظيم يدعونا اليه بالوف من الاصوات · آه ! ليتك تسمع هذا النداء وليتك تفقه بعض ما فيه من الجوى والحرقة ···

واطرقت الفتاة وغطت وجهها بطرف الرداء كأنها تخشى ان يقرأ الراهب في عينيها الكئيبتين المشتاقتين كل لواعج الاشتهاء · وكان فعلها هذا طهارة مملوءة بالهيام والكلف · فخيل للراهب ان نقطة زيت حارة سقطت عَلَى قلبه · وشعر لاول مرة في حياته انه رجل قد فارقه شبابه وولى صفو حياته · واخترق فضاء قلبه اسف منغص أليم عَلَى ما اضاع وما لا يرجع كما يخترق طائر ظلمة الليل · قد كان منذ صباه ممتنعاً عن الملذات الجسدية بارادته ورضاه · واذا به الان يشعر ان يد الزمان المهزولة قد اختطفت منه كأس التجربة التي لم تمسها شفتاه العفيفتان ولم تعرفا قط للقبلة طعماً ومعنى · وأحس بان أسى مجهولاً يضغط عَلَى قلبه ·

اما الفتاة فاخذت يديه بيديها الناعمتين الباردتين من التهيج ووضعتهما عَلَى خديها متضرعة هامسة

— أعده الي ايها الاب · فاني لن استطيع الحياة دونه

فانتزع الاسقف يده منها باحتراس وقال لها سائلاً بلطف كأنه يخشى

---

(١) پان — اله التلال والاحراج والطيور والقطعان في خرافات اليونان وروح من ارواح اركاديا يدعو الى الحب بمزماره

ان يسمع الليل كلماته

— لماذا تجهدين نفسك في التفتيش عنه ؟ ألعله ليس في اثينا شبان أجمل واقوى منه . أولا تعلمين انه قد تخلى عنك ؟

— كلا . لا اصدق ما تقوله . انا اعلم علماً موكداً انه لا يجد هناء دوني . لقد تكلمت منذ هنيهة عن المحبة الاثيمة ايها الراهب ولكن أليست الالهة التي اوحت الي المحبة التي تملىء جوارحي الان ؟ فقد جاء الى بيت ابي شبان اغنى واشجع واعقل من زينون ولكنهم لم يكونوا لي الا كالاشجار التي في الغاب او كالحجارة التي على الطريق . انا اريده وحده لا سواه . افلاطون يقول «ان الحب لا يكون قوياً الا حيث يلتهم الجسد والنفس»... ولكن لماذا اقول هذا لك ! أفي وسعكم انتم الرهبان الناقمون على الحياة ان تفهموا شيئاً من هذا ؟ ....

وشبكت اصابعها بحزن وقد أفعم قلبها اضطراباً وهياماً وابتهالاً وهي تحاول ان تحبس دموعها التي سالت في قلبها لئلا تجري على خديها . وخيل للاسقف ان ثياب تلك الفتاة لها وسواس يشبه ذلك الحفيف الذي كان يسمعه احياناً في الهواء عندما كانت جيوش الشياطين تملىء الهواء مترصدة رعيته . ولاح له وجهها ابيض نيراً في الظلمة المتكاثفة شامخاً ناصعاً . فقال مفكراً .

— نحن لا ننقم على الحياة بل على الخطيئة التي تقود وراءها الانحلال والهلاك الابدي . اذهبي يا امرأة ان من تدعينه زينون قد ارتفع الى علو

لا تستطيعين الوصول اليه

فعلا صوت ضحك لطيف ممزوج بالالم والانفة جواباً عَلَى كلامه ، وقالت الفتاة ،

— ألا تظن ايها الاب ان الافضل ان تدع زينون يحكم بنفسه ؟ لماذا تخفيه عني ؟ ألسلك تحسبه عَلَى غاية من الضعف حتى خشيت ان يقابلني ؟ اذا كان قد ارتفع الى علو السماوات وانا كما تراني ازحف عَلَى الثرى فلا خوف عليه مني ، فاني اذ ذاك لن اجد طريقاً الى قلبه

واراد الاسقف ان يقول — قد لا يكون لك طريق الى قلبه ولكن جسد الشاب مفتوح دائماً لاقتبال غواية الامرأة ... ولكن احتراماً مبهماً صادراً منه نحو فتاة لم يجد لها شبيهة في نساء يونطية الكاذبات التافهات المهتمات باباطيل العالم وزخارفه اوقفه وقد اغضبته كلماتها واثارته ولكن طريقة كلامها واستقامتها الظاهرة واصرارها في حديثها جعلته ان يميل اليها وينعطف ، وازدادت رغبته في ان يقي زينون منها وينجيه من الرجوع الى حياته القديمة التي لم يظللها نور الحقيقة المسيحية ، فقال

— حسناً يا بنية ، سافعل ما تشائين

ولم يكد ان ينهي عبارته حتى خرّت الامرأة عَلَى قدميه

فشبك الاسقف يديه عَلَى صدره كأنه بهذه الحركة يحاول ان يدفع العاصفة الثائرة عن نفسه وعن تلميذه وقال ،

— انك لم تفهمي كلامي جيداً ايتها الفتاة ، انا لا اعلم من انتِ

ولا من اين قدمت ولكن عينيك وصوتك تتكلم عن آلام مكنونة . وقد أوصانا سيدنا المسيح ان نشفق حتى عَلَى الضالين . فلكي ابين لك ان زينون قد ترك كل ضلالاته واهواءه القديمة ساحضره الى هنا واسأله عَلَى مسمع منك فترين بنفسك أنه تغير . ولكن عديني وعداً صادقاً انك لن تخرجي من حجرتي حتى اسأله ما تريدين واسمع منه الجواب

فلم تنهض الفتاة في الحال ولكنها قومت جسمها ورفعت رأسها ناظرة الى النجوم طالبة منها العون ... ثم نهضت ببطء ونظرت من خلال الظلمة الى وجه ذاك الذي في يديه حظها . فلاحت لها جبهته الواسعة بيضاء في الظلام تكاد ان تشع . وخيل لها ان ذلك البياض مرمر قاس لا يرق . ولكنها فهمت ان سائر الطرق قد سُدت في وجهها فاذعنت غير متأكدة النصر وقالت .

— حسناً . اعدك بذلك . ولكن اذا رأيت ان زينون لم يزل كالسابق فلا تستطيع كل قوات السماء ان تحولَ بيني وبينه . أسمعت ايها الراهب؟

فانحدر الاثنان من السطح . وأخذ الاسقف بيد الفتاة وادخلها الى صومعته الحجرية الضيقة وأمر باستدعاء زينون

. . . . . .

دخل زينون المكان متأبطاً كتبه المقدسة فهبَّ معلمه الاسقف لاستقبال تلميذه الحبيب باضطراب وخشية . فان مشابهة وجوه الملائكة التي كان يرسمها الشاب في الكتب المقدسة للملامح النادة الاثينية كان مما زاد في انزعاج

الاسقف اكثر من تضرعات الفتاة واصرارها

فتأمل المعلم وجه تلميذه عَلَى ضوء القمر وسأله السؤال الذي يتوقف عليه أمر الفتاة ·

فاجاب زينون بسكينة واتضاع ·

— اريد ان اخدم سيدي يسوع المسيح الى آخر ايامي

عَلَى ان الاضطراب والشك ما عتما ان دخلا قلب الشاب فتمثل امامه صورة انيسيا التي احبها واضاعها في هذه الحياة · فبارکه الاسقف ووضع يده عَلَى رأس الشاب فخيل لزينون ان معلمه يحاول ان يتلمس القشعريرة التي اعترت جسمه فهتف مرتاعاً كأنه يطرد عن نفسه قوات العدو

— لا تجربني يا ابتاه بسوءاتك اياي عما نبذته ابداً

واتصل في تلك الدقيقة باذان المعلم وتلميذه صوت خفيف ثياب صادر من الصومعة المجاورة · فقال الاسقف مستعجلاً

— انا أومن بطهارتك يا بني · فامضِ وقل للاخوة انني ساقيم معهم الليلة صلاة المساء ·

فخطا الشاب بضع خطوات ووقف · وارتفع صوته في الظلمة سائلاً

— من اين علمت عنها ما علمته يا ابتِ

فسمعت اذن الاسقف المنصتة في هذا الصوت شيئاً من ذلك الميل الحبي الذي رآه يملأ وجود الفتاة الاثينية فقال مقاطعاً تلميذه

— كفى يا بني ! لقد قلت لي كل ما اريد معرفته · فاذهب وانتظرني

مع الاخوة .

تباطأ زينون قليلاً وقد لاح له ان شبكة مجهولة قد اوشكت ان تصطاده ولكنه لم يدرك ان حظه قد كمن في ظلمة الصومعة وسكينتها . فاحنى رأسه وخرج .

ولما انقطع صوت خطواته التفت الاسقف فرأى انيسيا واقفة في الباب يغمرها نور القمر وقد غطت رأسها بطرف الرداء . فتوقع ان يرى دموعها ويسمع منها اللعنات والتأنيب . ولكن الحسناء الاثينية قالت بسكينة .

— وداعاً ايها الراهب . لم يبقَ ما افعله ههنا ... هذا ليس زينون الذي اعرفه بل سواه ....

وسارت بتمهل الى طرف الدهليز ثم وقفت والتفتت وقالت .

— لماذا قتلت فيه السرور ؟ أبهذا يأمركم الحكم ؟

ثم توارت غير منتظرة جواباً

. . . . . .

نهض الاسقف في اليوم التالي مبكراً وسار يقضي نزهته كالمادة حول الجزيرة مردداً كلمات العظة التي بدؤها بالامس ظهور الاثينية الحسناء

وقف امام المنحنى مصغياً الى ألحان بلبل يتنقل على اغصان شجرة فوق رأسه وشعر لاول مرة بكل جوارح جسمه القوي النحيف ان العالم جميل فبسط يديه شاكراً نحو الشمس كما بسطها قبله الافاً من السنين في اعماق اسيا عبدة ابولون والبعل وميترا وعشتاروت وغيرهم من الالهة العظام التي

فقدت اسماءهم ولكن قوتهم لا تزال حية من جيل الى جيل

وأفلتت من شفتيه المبتسمتين بدلاً من كلمات التأنيب والتهديد والتفنيد التي كان اعدها في قلبه لعظته كلمات فرح وتهليل من كتاب المزامير · وهي كلمات رنمها زمناً ملك نابغة ظهر بين شعب فلسطيني حقير

— سبحيه ايتها الشمس · سبحيه ايتها القمر والنجوم ···

وكرر الاسقف كلمات الشاعر المتوّج داعياً الى الترنيم والتسبيح الثلج والريح والاشجار والاطيار والوحوش والدبابات وملوك الارض والفتيان والنساء ·

ومرّ امامه مع الضباب المتصاعد من زرقة البحر خيال امرأة نحيفة تسترت برداء قاتم وظهر رأسها الجميل المثقل بضفائر ذهبية مجملاً بوجهها الزاهر وعينيها النجلاوين وفمها اللطيف يجلل كل ذلك الوقار والشجاعة والنقاوة · وكان جمالها كجمال الجبال والازهار والطيور وهي مثلها تنتظر الشمس المنيرة والفرح وتتوق اليهما ·

فلفظ الاسقف همساً كأن شخصاً غيره يقول عنه هذه الكلمات·

— ويحك ايها الغلام الغر لماذا انكرتها ونبذتها ···

ولكنه ارتاع لكلماته · فخرّ على حجر ملقى على الطريق وغطى رأسه بردائه كأنه يختبىء من عدو يتعقبه · وتواردت للحال الى ذاكرته كلمات العارف بالقلوب · الكارز العظيم · يوحنا الذهبي الفم القائل ·

— قد يكون طرف الامرأة العفيفة اشد خطراً من عيني الخالعة حياءها·

وخيل له انه يسمع خفق اجنحة فوقه · فخاف ان يكون ذلك صادراً عن اجنحة الابالسة · ولكنّ لذة سرية تدفقت في نفسه ففمرتها وطردت الخوف منها فاستولت عليها ثورة خفية متأخرة عن اوانها لم يشعر بها سابقاً

« تمت »

من يعرف سواه من الناس فهو حصيف · اما من يعرف نفسه فهو كامل التهذيب · ومن يغلب سواه فهو قوي · اما من يغلب نفسه فهو كلي القدرة · ومن يعلم وهو يموت انه لن يفنى فهو سرمدي ·

لاوتسي — حكيم الصين

الجمال البسيط لا يقدره حق قدره الا جهابذة الفن · اما العامة فتحب الزخارف ·

الغنى لا يغير الناس بل هو كالمرآة يبديهم بمظهرهم الاصلي

اعظم هبات الطبيعة للانسان اثنتان — النوم وجهل المستقبل ·

اذا حاربت الخطيئة فسالم الخاطىء ·